عربة الليل

قصة بقلم موسى كريدي

حين وقفت بطولها أمام باحة الدار ، كانت قلقة النظر ، غير أن وجهها كان باتجاه الصوت ، المتقطع ، السافط ، المستدير كحشرجة طويلة تلاشت في الضوء الساطع الممتد الذي لاح لتوه من بعيد وبدا غامقا أزرق ، ابيض قرب التلال ، وتراخى عند حافة كثيب رملي . واطمأنت اذ لامست نظراتها جانب التل ، وحدست ان بلوغ التل لا بد أن يكلفها ثمنا باهظا ليس من السهولة دفعه ، غير انه لا بد من دفعه الان . عرفت هذا ، وعرفت وللمرة الثانية ان شيئا ما سيقع هنا ، وراء التل ، وان الضوء الزاحف من جانب البحر سيتجمد في نقطة لن تبعد عنها كثيرا . سمعت نحركهم ، فتحركت ، غير انها في اللحظة نفسها أحست بشيء بدا لها مسنا ، وثقيلا ، ولكنها وجدته يمارس فعله بسرعة مدهشة ، ويداخل ذهنها خاطفا كالطيف ويدور دورتين أو ثلاثا . هي لا تدري بالضبط ، وخلال ذلك استطاعت أن تلقي بوطنها السوداء بعيدا ، وان تمنح تهيكلها النحيف مجالا يمكنها من الحركة والتخطي أسفل بناء السور ، الواطىء والممتد في عراء دائم . نمشت ببطء ، وحذر ، وأتيح لها بعد قليل أن تنحني نحو الارض ، باسطة كفيها لاستقبال وريقة انبات الحائلة اللون ، والسافطة من شجرة الباحة . الشجرة القائمة كالابد وسط السور . في تلك اللحظة التمعت عيناها ، انفتحتا أكثر وظلتا ممعنتين في الارض بصمت ، على حين ظلت الشجرة ، المنتصبة ، المطمئنة مدومة في خيالها ، وناصلة تزحف نحوها ببطء . ولم تكد ترقب الوريقة الساقطة من فوق حتى ألفتها تنوس متكورة ، مستقرة فوق الراحتين المنبسطتين ، والمرميتين كدمعتين كبيرتين خلال عشب محروق . وحول الشجرة طوف طائر غريب اللون ، وفي لحظة رف الطائر في الهواء ، وبدا أسود ، شديد السواد ، وما لبث حتى استدار مختفيا في الظلام . وعندها نهضت أم ظافر ، وكان فضاء الصوت في الخارج يتسع ، ويدوم ، ومن خلال شقوق الجدار الفاصل بين الموت والحياة حاولت أن ترى الاشياء فلم تستطع ، ولم تطاوعها يداها لفتح النافذة القريبة . تحركت قليلا : من ؟ من هم ؟ جلست ، ثم استوت ثانية ، ماذا يمكنها أن تفعل هذه اللحظة ؟ كانت تقرب يديها من صدرها . هي تعرف ان قدميها ستعبران الصوت ، وتخترقان غابة الخوف القائمة على مبعدة أمتار من السور . تساوت الاشياء داخل السور ، وفي الخارج تعذر عليها أن تلمح شيئا ذا وجود فعلي وكأن كل شيء قد ذاب في لحظة وانصهر ، غير أن الشيء الوحيد الذي لم يفارق عينيها ظل يطمئن بين يديها على حين كان الطرق يشتد ، ويشتد هنالك ، والاصوات ـ على غموضها ـ تبدو داعرة ، تتواطأ في صليل متصل يتشابك أكثره كفناء وحشي عند أذنيها ولا ينم عن شيء . تقدمت على أطراف أصابعها ، مأخوذة ، حذرة . قلبها رصاصة لم تشب بعد ، ورأسها يدور في محض سواد آسن . شيء ما يثز قربها تماما لم يستطع أن يكشف عن هويته ، ماذا يريد هؤلاء ؟ ماذا تريد هذه الاصوات ؟ الطرق يشتد كأقوى ما يكون ، وصهيل أبح يتناثر خلال الطرقات الالف . الاصوات تستطيل ، تدوي ، تشيل الباحة باكملها . تقتلع الشجرة بقوة فيضطرب ظل قامتها خلال فسحات الضوء الواهن بينما قطرات من الملح تتحدر من جبهتها لتتجمع على طرف لسانها . اجتازت عتبة غرفتها القائمة في الفراغ ووقفت ازاء الاصوات التي هدأت فسمع من بينها صوت غليظ يطلب فتح الباب . تقدمت نحو الباب غير مصدقة . امتدت يدها ، فتحت الباب . كانت مغمضة العينين . استقبلها رجل ضخم ، مقنع ، أشبه بغراب سمين ، أمرها أن تفتح عينيها وقال لها : تقدمي ، فتقدمت . وصارت بمحاذاة العربة الواقفة ككتلة سوداء ، ضخمة . وما كادت تقترب أكثر من مقدم العربة حتى لحظت بضعة جياد مبرقعة بوجوه مصنوعة من صفائح مطاطية تبرز خلال ألوانها الداكنة عيون مختبئة خلل تجاويف بارزة بدت كردهات خالية . وقف الرجل الضخم ، وأشار اشارة غامضة الى مساعده القريب وكان وجهه أسطوريا ، مستطيلا بعض الشيء . مثلت الصورة أمامها تماما فلم تستوعبها ولم تتحرك ، غير أنها صرخت بوجه الفزاة فاهتزت العربة ، واضطربت سيور الاحصنة اضطرابا مريعا ، وارتجت كتلة الفراغ . مضت العربة في طريق مجهولة ، ولم يخلف رحيلها غير نقطة سوداء لم تتضاءل رغم بلوغها مسافة بعيدة وهي تتوغل أكثر فأكثر عبر نفق طويل . كان الليل نفقا طويلا وكان يتداخل في أنفاق طويلة . حسب ظافر وهو في الداخل أن جسده بدأ يتحول فجأة الى قطعة مومياء حملت الى كهف صخري ، مسور بالحراب ، يصير الكهف الغامض جثة . سيجاور جثة اذن ! لم يرعبه الهاجس بادىء الامر . ضحك ملء المكان واعتبر ذلك شبه أسطورة ، وضحك أكثر ، ولكنه حزن أشد الحزن في اللحظة نفسها . وضاق . وتمنى الساعة أن يكون حرا وواعيا ، ووجد في ذلك صعوبة يتعذر معها معرفة وجهة العربة ، وشعر كأن نصلا حادا طفق يتثاءب في لحمه . وبفطرة من يواجه الموت فجأة عرف أن هذه القطعة التي هي جسده بالتأكيد لن تطحنها عجلات العربة ، وان هذا التصور كان بمثابة تحليل للموقف بسيط ، وغائم ، كشف له بعد لحظات ان المسألة أفظع وأشد مما يتعين على مخيلته أن تدرك منذ الان ان القضية لا تنتهي بسرعة ، والى هنا حاول ظافر أن يجمد خياله في نقطة الصفر المطلق ، ويبدو انه لم يستطع . هنا بالذات كان يتخيل ، هل يصعب مثلا أن يتخيل .. غيابه .. غياب الجسد أولا ؟ هل ثمة ما يعادل هذا الغياب ؟ والعربة : أتظل محتمية بالموت ، والليل ، والرصاص ؟.. وأمه ؟ ألا يمكن لخياله أن يستحضرها الان ؟ وماذا بعد ؟ عمه .. أين هو الان ؟ طفرت فجأة عبارة . انزلقت من رف منسي ، وفرقعت في الشاش المثبت داخل اطار ذهنه . عمه قال مرة .. ماذا قال ؟ قبل عدة أعوام ... هو يذكر وجهه المتوتر ، المغضن ، وعبارته المثقلة بدم قديم وقد ظلت أعواما تلون حنجرته ، وتستحم في نزيف مزمن . عمه في رأسه الان . ماذا يريد أن يقول ؟ ـ هم يقيمون .. عيدا .. ماذا ؟ عيدا ـ هذا واضح ومفهوم ـ حين يقتل اليهود عربيا فانهم .. يقيمون .. ماذا ؟ عيدا .. عيدا .. عيدا في قلوبهم ـ انتهى الكلام . ظل ظافر يستمع بصمت الى محدثه ذي الوجه المحتقن ، والحنجرة الملونة بالدم . هو ما يزال داخل العربة . وعمه ما يزال في رأسه . تتراكض الجثة في المبكى ، تئن ، تتأرجح كزنجية مذبوحة . لماذا ؟ لان عيدا يقام .. هل في ذلك غرابة ؟ لتتحرك العربة اذن داخل العالم ، والعالم جثة بلا قسمات . لا تتحرك . بل تنطرح على امتداد السكون . لم يتحرش ظافر بالجثة المرمية . انه يطرق أرضا يعرفها . أيمكن للجثة البلهاء أن تقول له انك طارىء . ان لم يكن كذلك ـ وهذا غير ممكن ـ فستركم الاشياء عينيه وتجعله في أقل الحالات قلقا تحاصره نار جديدة ، ورماد جديد يغمرانه في قاع غير مألوف بالمرة . قد يكون هذا أمرا فظيعا . ولكن الافظع منه ألف مرة ان تكون لامه عينان ترصدان كل شيء . وان تكون لها ـ فوق ذلك ـ أذنان تتسمعان كل صوت ، وكل أنة . لا شك انها ـ على أقل تقدير ـ ستتسمع . وان لم تسمع فانها سترى ، وان لم تر فانها ستتصور ، وهذا فظيع أيضا ولا يثير الحزن ، ولكنه يثير كامنا آخر . الجنون محتمل اذن . ربما قيل لها ولكن من يقول لها ؟ ان هؤلاء القتلة لم يظفروا بقتيل ، بجثة ، برأس ، بيدين ، برجلين ، بحطام ، برماد .. ب .. ب .. وانما ماذا ؟ ستتسمع وربما سمعت فضلا عن أن ترى أن هؤلاء القتلة بدأوا من الان ، أي من اللحظة التي قبضوا فيها عليه ، أي من اللحظة التي أركبوه فيها ظهر العربة وجعلوه في مواجهة الارض والليل معا .. هؤلاء بدأوا باقامة أعيادهم . هم يقيمون عيدا . كان هذا محتملا جدا . وكان الرجل ما يزال يجلس قبالته . رجل ضخم . عيناه المستديرتان تقدحان شررا يهوديا ، وتبثانه فوق الجبهة المبقعة بالدمامل حتى أسفل ذقنه المثلثة الشكل .

سارت العربة في أرض واسعة ، في غابة . وكان واضحا انها تسير على طرف منها . مرت بأرض شديدة الانحدار فاهتز جانباها ، وسمع الصهيل الابح ، وكانت عينا ظافر تخترقان ضبابا بدأ يتكاثف حين ادركت العربة المفاوز التي بدت كفوهات بنادق غريبة . في اثناء سير العربة كانت امه تحط في اهدابه غيمة دفء تجيء من بعيد . تظلل عينيه ، وقامته ، وجبهته السمراء . وفجأة سقطت هالة من شعاع بعيد وبدت كقوس . وكانت مدن بلون الشجر تتقدم نحوه ، تنبثق خضرتها وتتفتح ، تنظر اليه ، وتمد باتجاهه اذرعا مقطوعة . حاول ان يمد كفيه ، أن يلمسها ، فلم يستطع . لم تكن كفاه مقطوعتين ، غير انهما شدتا باحكام ، فرأى المدن مع ذلك تقترب ، وتومض في السهل ، قرب البحر ، فوق السور الممتد على خط القوس وقد بدأ الخط واضحا ، واحسه يطوق بقية الضوء الساقط من عينيه . كان هذا يتم في سرعة . برهة وتكاثف الضباب فلم يستطع ظافر والحالة هذه ان يرى في يقظة السواد سوى جانب واحد من السكون الموزع كالرعب لانهم ربطوا رأسه فلم يتمكن من رؤية ما حوله . فمن طرف واحد كان يرى العالم نقطة صغيرة ، تنضخم ،تصير في لحظة جثة ، محدبة وهشة وجدت صدفة معلقة على عمود في رواق عتيق ، وذي رائحة . كانت الجثة ترقب في استسلام غريب تحركات القتلة . مس طرف منها عينيه .. عيناه لم تجمدا في تلك اللحظة ، بل ظلتا مفتوحتين غير انهما وبالرغم من احتراق الجثة على نحو يثير الفرف كانتا تلمسانها باطراف رموشهما المشدودة . حاول ظافر تنحية الجثة عنه ليكون – على الاقل – حرا ينبض كالرمل في الصحراء الخالية فلم يستطع ، وظلت الجثة معلقة كنقطة سوداء . كان يمكن لظافر ان ينتحب ولكنه فضل الانتظار .. لعل في الدقائق الآتية ما يمكن ان يشير الى شيء ولكنه رأى طيلة الانتظار شيئا ما يتدحرج . تطويه العجلات ، وتدوسه ارجل الخيل ، رآه مثل كرة مثقوبة ، تتحرك في الارض حركة بطيئة ، وتتلون بلون التراب ثم تختبيء كلغم خلل عشب كامد اللون . رأسه يتدحرج . يتم الانفصال . انفصال الرأس عن الجسد في اقل من دقيقة وليس بمقدور اي كائن آن يسمع اي صوت . فالعملية بسيطة وبساطتها متناهية ، ولكن قبضة احدهم كانت ضخمة جدا ، وقذرة جدا . كانت تمسك بمقبض الحربة . رأس الحربة الناصل يلمع . الرأس ما يزال يتدحرج . الحربة تستنيم في يمين الرجل اليهودي ، والعربة تسير ، وللزمن آلاف الابعاد غير انها تختفي جميعا وتغترب في الضباب حيث يتشكل ، خارج الزمن ، طقس آخر لمهمة مكتومة تتسارع هي الاخرى ، وتصدر خلال كتل اللحم المتراصة في ثنيات حديدية اصواتا موصولة تظل تتوافق مع صوت عظام ترتطم . ينطفيء الصوت . يتدحرج الرأس . تضحك العربة هي الاخرى .. ثم تلتحق الليل عربات اخر .. تتوقف العربة ، هنا ، على منحدر واد عميق . شوهدت العربات الاخرى تزحف كنمال ضخمة ، وتضيع خلف مشاجب طويلة ظهرت تحت منفسحات الصخر كقاعات معتمة تتعرج قليلا . قال الرجل اليهودي لظافر بعد ان قطع بحربته الحبل الذي كان يطوق عنق الشاب الفلسطيني : آن لك ان تتحرك ضمن عربتنا هذه ، وان تلحظ الاشياء بعينيك . تنفس الآن . لن يروق لك هذا . يبدو انك مستاء منا . هه . تكلم .. ! تحرك رأس ظافر . قرأ وجه الارض . رأى .. رأى الحبل ، والحربة ، والحد الفاصل بينه ، وبين حدود العربة القائمة والتي بدأت تقترب مع وقع اقدام مجهولة آتية من منحدر الوادي الضيق . سمعت اصوات ابواق . وقرع شديد لطبول اهتزت معها الغابة . اهتز الليل . استمر ذلك بضع دقائق . ظل الرجل الممسك لظافر يهتز . ظلت يداه تلعبان بسوط مطاطي صغير كان قد ابدل الحربة به قبل لحظات .. يبتسم الرجل طيلة القرع البوهيمي المتصل – يقيمون اعيادهم ، هنا ، غير اني لن اضيء في قلوبهم ، لن اكون عيدا . انني اكرر – لن – حتى ينقطع نفسي – قال ظافر ذلك ، وكان صوته يستطيل كدوائر رمادية ويتناثر في الريح الآتية من بين عشرات القرى البعيدة ، والراقدة في السكون الممتد كجثة طويلة . اختفت اصواتهم . انسحبوا . حاول ظافر في تلك اللحظات ان يتبين ملامح بعضهم فلم يستطيع . استمرت العربة في سيرها . وفي هذه المرة بدأ ظافر رغم كثافة الليل يسدد بعضا من نظراته نحو عنق الرجل، اسفل جنديين كانا ملتصقين ، وقد غطيا قاع المركبة . فكر ظافر .قتل الجنديين قد لا يحدد شيئا وربما عقد الموقف ، واطال في عمر العربة غير أن قتل الرجل الآخر يعني بالضرورة قتل الاثنين الآخرين وهذا بطبيعة الحال سيعجل في محو العربة من خارطة المسافة القصيرة التي بدات تتضاءل وتلتم ربما في أصغر نقطة . ستحدد فيما بعد أو عما قليل شكلا آخر للمعركة تنتهي معه اسطورة العربة حيث يستمر ،هنا، تجمع الفدائيين ويكون التأهب للمقابلة أسرع واشد . يبدأ الانطلاق من نقطة الجبل . يسير ثلاثة باتجاه أكياس الرمل وينجه اثنان مقتربين من حافة الخط النازح نحو النقطة المذكورة-ويظل الباقون خارج السور ، والامدادات لا بد آن تتلاحق ، وتتلاقى ولا يمكنها ان تنقطع الا حين تنتهي المعركة . المعركة اذن ... فكر مرة أخرى في خطة جديدة، بعد لحظات سرى في عقله شيء كاليقين . اقتنع وتأكد أن رفاقه كانوا يرقبون تحركات العربه . كان الليل يغمر كل حركة ، ويلون كل ساكن. تنبه ظافر وسمع صوتا ميزه في الحال . هو يسمع بوضوح كل نباة تصدر هنا ، ولم تكن عيناه محدقتين بأيما شيء . ورغم ذلك ، فقد كان يرى كل شيء واضحا ومحددا. والصوت لم يكن صادرا من داخل العربة . واستطاع آن يلمح قطعا بيضاء مربعه ، شاهدها تتدحرج من فوق ، وتتجمع اسفل المنحدر شبه الصخري . أنت الجياد ، وهمت مسرعة . ساطها الرجل اليهودي فاشتعلت حوافرها رغم التعب .. وفجأة سمعت صافره الدار من بعيد وسمع صوت اطلاق رصاص من مدافع ثقيلة . وهنا ، تململ ظافر للمرة الاخيرة فازدادت عيناه ابيضاضا . توقفت العربة ووجدت جيادها مغمورة في الضوء الاتي من بعيد . كان الضوء الكشاف يغمر مقدم العربة باهتا . خوض الرصاص في الريح ، ومر الليل فوق الاشياء واهنا ، طباشيريا ، أزت رصاصة باتجاه العربة وكانت الاسلحة كلها مشرعة . تضاءل الضوء فحاصرت العربة الجانب الصخري ، المربع ، المتموج نحو البحر . كانت المعركة على اشدها . كان الطرف المهاجم في أقل . في الجانب الاخر ، وكان الطرف المقابل المستميت يقاوم . تراجع حرس الحدود أمام الهجمات المتلاحقة ، الصاعقة فشوهدت خلال الغبار اشباح تتطرح سريعة ، فوق الارض ، غمرها الصمت ، لمدة وجيزة . وعلى الاثر احضرت عربات نقل وصار المكان قصبة لجنود كثيرين . ضجوا . تحت فضاء بدأ رماديا وسمع صخب ، ووسوسة لاسلحة كثيرة لم ينطفيء بريقها رغم حلقات الدخان المتصاعدة خلل ثثير الغبار المتطاير ، الحائل في الليل. تفرق الصمت وانهزم على صوت رصاص ظل ينهمر متواصلا . اختفت العربات كلها ولم يعد ثمة وجود فعلي لها ، غير أن قطعا تكومت هنا ، وانطرحت هنالك . ولم يعد في استطاعة أحد آن يرى الاشياء كما هي وليس له ان يسمع صوتا ما لاسلحة تصلصل ، او لشجرة تهس . ليس لاي شيء ايما بعد ولم يكن ليرتفع اي حس سوى ما كان من دخان ضارب ، وجائل اعلى المنخفضات التي بدت تتجمع كبرك ضبابية زرقاء . كانت ام ظافر ، الوقت كله ، تتأهب لتواجه الليل هي الاخرى . انتظرت وليدها . ولكنه لم يعد . ظافر لم يعد . من يدري ؟ فلربما عاد الآن .. سيعود . قال انه سيخرق العربة والليل معا . اي معنى للانتظار اذن ؟ لا بد من اللحاق بظافر ، لا بد من الجري . انه هناك .. تمشت ام ظافر . حركت قدميها وانفلتت تجري داخل السور . في الخارج ؟ لا شيء .. الصمت .. انه هنا ، هش ، لا معنى له . الشيء الذي تحمله معها ينمو ، يكبر ، يصبح بها . صمتت . كانت عيناها العميقتا السواد تتحديان كل شيء ، وتقاومان كل مرئي . كان عنادها لا يقاوم . خطت خطوتين وفتحت الباب . وما هي الا خطوتان أخريان حتى تسمرت القدمان الجريئتان . ماذا ؟ تطلعت فيما حولها لم تجد أحدا بالمرة . وقفت مذعورة وكادت تسقط لولا انها تحركت قليلا . قاومت هذه المرة نفسها فتقلص ثقل كامل قد شنج عروقها . خطت نحو الشيء الكابي فوق الارض عند منحدر متموج صغير،اقتربت منه ، كان وجهه لاصقا بالارض . تطلعت اليه . تطلعت بصمت ، ارادت ان تنحني نحو الجثة فامتنعت عن ذلك وتنحت جانبا ثم عبرت المنحدر ... وفجأة صدها ضوء كشاف ، مطعون ، دنا منها فاخفت قامتها في حرش مجاور ثم اختفى الضوء تماما ، وحينذاك سارت قليلا فشارفت جانب التل ، فتحت عينيها وسمعت صوتا . هي تعرف وليس غريبا عليها بعد هذا ان تزحف اسفل التل . بعد لحظات رفعت رأسها محنية الظهر ، لاهثة ، رأت التل يقترب منها وفي نفس الوقت رأته ناشرا قامته في جلال ، وراسخا رسوخ قدميها اللتين ما زالتا تجوسان قاع الليل .

النجف (العراق) موسى كريدي